المبحث التاسع

ليلة النصف ونقاء القلوب

ليلة النصف ونقاء القلوب

اللهم إنا نسألك بعفوك وبقدرتك وبرحمتك، أن تكون قد جعلتنا في هذه الليلة من المعتوقين، ومن السعداء ومن المرحومين، فأنت ولينا فاغفر لنا، وارحمنا وأنت خير الغافرين.

واكتب لنا في هذه الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً إنا هدنا إليك، سبحانك إنا هدنا إليك في هذه الليلة، وهي من أعظم ليالي الدهر، فمنذ قليل رفعت أعمالنا فى ليلة النصف من شعبان، ورفع كتابنا إلى مالك الملك، إلى ذي الجلال والإكرام، إلى رفيع الدرجات ذي العرش العظيم يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، سبحانك كنا صائمين، وأنتم صائمون في هذه الأيام القمرية من شهر شعبان، وما أجملها من أيام!

تفرغ قبل آذان المغرب بساعة؛ كي تراجع فيها أعمالك؛ كي تطلب من ربك ﷻ أن يعفو عنك، ويغسل أوزارك، وأن يتوب عليك، وأن يجعل صحيفتك بيضاءً نقيَّةً ليست ملوثة بالذنوب والمعاصي والأوزار، فالجلوس ساعة قبل صلاة المغرب، وقبل آذان المغرب تجعل كل منَّا يتزلزل كل منا يرتعد، فتلك لحظة تصعد فيها أعمالنا، وترفع إلى رب العرش العظيم .

ونرجو أن نكون في هذا اليوم من الناجين، ونرجو أن نكون في هذا اليوم من المعتوقين، ونرجو أن نكون في هذا اليوم من سعداء الدنيا، وسعداء الآخرة، فهي لحظة صعبة أن يجلس الإنسان ينتظر الرحمات، يرحَم أو لا يرحُم؟ هل زلت أقدامه في هذه السنة التي رفعت فيها أعمالنا أم كان مثبتًا؟

وإن كنت من أصحاب الهمة العالية، ومن أصحاب اليقين العالي، وكنت صوامًا، قوامًا، شكارًا، ذكارًا، مطواعًا، منيبًا لحظات من المراجعة، كلما رأيت الشمس وهي تغرب فإنك تقول لها: انتظري أيتها الشمس قليلًا، لعل الله تعالى يمد في أنفاسنا كي نستغفره، ونتوب إليه، ونزداد

تزلزلًا ورهبة وارتعادًا، وعندما ترفع هذه الأعمال كانت غروب الشمس بأعمالنا، وبعد غروب الشمس بقليل فإذا بالقمر يصعد من الجهة الأخرى، سبحانك فنحن في أيام قمرية كما في قوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس:٤٠].

سبحانك، سبح كل شيء لعظمتك، كبر كل شيء لكبريائك، يا عظيمًا يُرْجَى لكل عظيم، يا من جعلت في قلوب عبادك المهابة والرهبة، جعلتنا نخافك ونحذرك ونرجوك كما في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر:٩].

فاللهم أيقظ قلوبنا في هذه الليلة، واللهم اجعل قلوبنا مفضية إليك، واجعلنا نبدأ هذه الليلة عاما آخر من أعوام المحاسبة، وأعوام المراجعة، فإنك اليوم تستأنف رحلة جديدة بعد أن رفعت أعمالك إذا كانت قد رفعت أعمالك، وإذا كانت قد غفرت لك. وإن أخرت أعمالك لحقد أو حسد أو لمعصية؛ فإنك يجب أن تراجع نفسك؛ لأن كتابك مكتوب عليه اقرأ كتابك، كتابك أنت، لا كتاب ابنك، ولا ابنتك، ولا زوجتك، ولا أولادك، ولا والدك، ولا والدتك كما في قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٤]

ماذا كان في كتابك؟ لماذا سطر كتابك؟ إنه سطر بأعمالك أنت، وليس بعمل غيرك، الكلمات التي كتبت في الكتاب هي التي تلفظ بها لسانك، هي ألفاظك، هي تعبيراتك، وعندما تتأمل في هذا الكتاب فإنك تتعجب من شموليته، كما في قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فالأشياء الصغيرة التي تخفى علينا، أو تخفي عيوبنا، فإنها تظهر أمامك يوم القيامة قويةً شديدةً مزلزلةً كما في قوله تعالى: **﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾** [ق:٢٢].

والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين، وحبيب الحق الذي علمنا فضل شهر شعبان، وفضل الصيام والقيام في شهر شعبان، والذي دعا الملك قائلًا كما قاله الحبيب صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام: «**اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان**»[1] فقولوا وتعلموا ما كان يقوله الحبيب ﷺ، فأنت الآن تستعد لوقت آخر من أوقات الطاعات، وباب آخر من أبواب المسارعة إلى الطيبات، اللهم اقذف في قلوبنا نور حبك حتى نخشاك وحتى نحبك .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد البشير النذير السراج المنير الصادق الوعد الأمين.

وبعد؛ كل عام أنتم في خير، كل عام أنتم في عافية، كل عام أنتم في بركة، كل عام أنتم في سعة، كل عام أنتم في شرح صدر وفي تيسير أمر، كل عام أنتم إلى الله أقرب، ومن الله أخوف، كل عام قلوبكم وجلة، كل عام ألسنتكم ذاكرة، كل عام أعينكم باكية، كل عام أبدانكم صابرة صائمة، فاللهم لك الحمد فقال تعالى: **﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾** [الفرقان:٦٢].

فاللهم اجعلنا من أهل الذكر، ومن أهل التذكر، واجعلنا يا ربنا من أهل الشكر، ومن أهل الحمد، هكذا كان قلب رسول الله ﷺ يتعلق بالأهلة، بهلال كل شهر عربي، وعندما ينتصف رمضان ماذا يمثل لك؟ وعندما يأتي

---

(١) رواه: أنس بن مالك، المحدث: النووي، المصدر: الأذكار، رقم الحديث: ٢٤٥.

اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر عربي، ماذا يمثل لك؟ هذا هو الإيمان الذي حدثتكم عنه ولله الحمد، اللهم اجعل عملنا موصولًا بحبك، واجعل ألسنتنا رطبة بذكرك، وتوفنا وأنت راضٍ عنا.

لازلنا نتحدث عن النقاء، والنقاء اليوم يرتبط به ارتفاع العمل أو عدمه، فلو كنت اليوم ملوثًا بالمعصية، أو الحسد، أو ضغينة، أو لم تكن نقيًّا ففي يوم الرابع عشر من شعبان ليلة النصف، وأن عملك لم يرفع؛ لأن النقاء هو شرط أساسي في قبول صحة العمل، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]

قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ من ربي أنما إلهكم إله واحد، فمَن كان يخاف عذاب ربه ويرجو ثوابه يوم لقائه، فليعمل عملا صالحًا لربه موافقًا لشرعه، ولا يشرك في العبادة معه أحدًا غيره.

فعلى سبيل المثال، إذا ذهبت إلى خياط بقطع من القماش متباينة في أسعارها، متباينة في جودتها، ومتباينة في نقائها، فقلت له: فصِّل لي هذه، وأعطيته المواصفات، ولكنه خالف المواصفات في تسعة، ووافق المواصفات في العاشرة، والعاشرة القماشة التي فيها ضعيفة، ولكنه أخلص فيها، وحسن فيها، وجوَّد فيها رغم أن القماشة في حد ذاتها ضعيفة لكنه قواها بالإخلاص، فأعمالنا دائمًا هي أعمال ضعيفة، صلاتك فيها تكاسل، صومك فيه نسيان، ذكرك فيه سرحان، لماذا ؟ لأن الله تعالى خلقنا من ستة عشر عنصرًا، وكل عنصر يشد في الثاني بشكل معين، ويؤثر فيه بشكل معين، ويتفاعل معه بشكل معين، كما قال لك الملك في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج:٣٩]

وليس الأمر كما يطمعون، فإنهم لا يدخلونها أبـدًا، إنَّـا خلقنـاهم ممـا يعلمون مِن ماء مهين كغيرهم، فلم يؤمنوا، فمـن أيـن يتـشرفون بـدخول جنة النعيم؟

إن الطين عناصره شتى، وكل عنصر يشد الثاني فالإنسان ضعيف، هـذا الضعف كيف أتغلب عليه؟ كما قال لك الملك ﷻ في قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا**﴾ [النساء:٢٨].

أي: يريد الله تعالى بما شرعه لكم من التيسير، وعدم التـشديد علـيكم؛ لأنكم خلقتم ضعفاء، وإن أحب العمل الذي كان يحبه النبي العظيم ﷺ كما جاء في الصحيح عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها: «أن أحب الأعـمال إلى الله أدومها وإن قل»[(١)] وإن مع دوام هذا العمل الإنـسان يجـد حلاوتـه، ويشعر بلذته، ويشعر بطعمه.

فعلى سبيل المثال: إذا جاء إنسان وقال: أنا أقضي النهار في تعـب وأمـور الحياة المهلكة، وفي الوقت نفسه أقيم الليل، هذه مسألة ليست صعبة في ظـلام الليل؛ لكي تستعيد فيها نفسك، وتستعيد فيها قلبك، وتجمـع فيهـا فـؤادك، وتناجي فيها الملك والناس نيام .

لابد وحتمًا أن تكون (البطارية) الإيمانية مشحونة بهذه الأعمال الإيمانية القوية، هذا هو النقاء الذي لا زلنا نتحدث عنه، نحن تحدثنا من قبل عن وحدة الأمة التي ليس فيها دعاة على أبواب جهنم حتى في المساجد، كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا**﴾ [الجن:١٨].

أي: أن المساجد لعبادة الله وحده، فلا تعبدوا فيها غيره، وأخلصوا لـه الدعاء والعبادة فيها؛ فإن المساجد لم تُـبْنَ إلا ليُعبَـدَ اللهُ وحـده فيهـا، دون سواه، وفي هذا وجوب تنزيه المساجد من كـل مـا يـشوب الإخـلاص لله، ومتابعة رسوله محمد ﷺ.

---

(١) مسند الإمام أحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: باقي مسند الأنصار، رقم الحديث: ٢٥١٣٨.

هذا هو الأساس في الإسلام، فالمساجد عنوان للنقاء، وعنوان لصحة الأعمال، والمسجد بيت كل تقي، لا خلاف على هذا كما تحدثنا من قبل، هناك من الناس من لا يحبون للحياة أن تسير على طبيعتها (لا)، فإنه يصعبها ويعيش في مشاكل، ويجعل الناس يَعيشُون في مشاكل، ولا يريد لهذه الحياة أن تكون في نقاء، ولا في سعادة فماذا يفعلون؟ إنهم يشقون عصا الطاعة كما نقول في العامية: "خالف تُعْرَف". فالناس كلها تقف في مكان عدل ومضبوط، وهو يطلع هنا أو هنا من باب "خالف تعرف"، الإسلام لا يعرف هذا المثل، وإنما يعرف كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

أي: وإنَّ دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وهو الإسلام، وأنا ربكم فاتقونِ بامتثال أوامري واجتناب زواجري.

فجعل الله تعالى الأمة واحدة، لها إمام واحد، لها قبلة واحدة، لها كتاب واحد، لها رب واحد رفيع الدرجات ذو العرش، ولها سيد واحد كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣]

أي: لقد كفر من النصارى من قال: إنَّ الله مجموع ثلاثة أشياء، هي الأب، والابن، وروح القدس .. أما علم هؤلاء النصارى أنه ليس للناس سوى معبود واحد، لم يلد ولم يولد، وإن لم ينته أصحاب هذه المقالة عن افترائهم وكذبهم ليُصِيبَنَّهم عذاب مؤلم موجع بسبب كفرهم بالله ﷻ وهي قضية منتهية، هو إله واحد كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥].

أي: ما كان لله تعالى ولا يليق به أن يتخذ مِن عباده وخَلْقه ولدًا، تنـزَّه وتقدَّس عن ذلك، إذا قضى أمرًا مـن الأمـور وأراده، صـغيرًا أو كبـيرًا، لم يمتنع عليه، وإنما يقول له: «كن»، فيكون كما شاءه وأراده.

الذين لا يؤمنون بالله تعالى، ولا يحتوي قلوبهم على إسلام، لا يعرفون الله تعالى ولا رسوله ﷺ، ولذلك فإن الله تعالى يذكر لهم القضية بأسباب عقلية بعيدًا عن العواطف، كما جاء أيضًا في قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون:٩١].

أي: لم يجعل الله لنفسه ولدًا، ولم يكن معه معبود آخر؛ لأنه لو كان ثمة أكثر مِن معبود لانفرد كل معبود بمخلوقاته، ولكان بينهم مغالبة مثل: شأن ملوك الدنيا، فيختل نظام الكون، تنزَّه الله سبحانه وتعالى وتقدَّس عن وصفهم له بـأن له شريكًا أو ولدًا.

هذا سر الوحدانية التـي نفهمهـا في الإسـلام، ومعناهـا أن الله تعـالى واحد، وأننا أمة واحدة، ومعناها أن قلوبنا تجتمع على ديـن واحـد، وعـلى قبلة واحدة، وعلى نبي واحد، وعلى إيمانٍ واحد .

ما بالك أيها الأخ الكريم بأن هناك من لا يريد لهذه الأمة أن تكون أمة واحدة، ماذا فعل المنافقون في عهد رسول الله ﷺ ؟ اتخذوا مسجدًا ضرارًا ليصلُّوا وحدهم بعيدًا عن رسول الله ﷺ، ويعتذروا بظروفهم، وأنهم لا يحبون أن يدخلوا في مشاكل مع أحد، أي يمنطقون الموضوعات ويضعون لها فلسفةً واهيةً، وفي الحقيقة كانوا يفعلون هذا استئناسًا بما فعله زعيمهم أبو عامر الراهب؛ عندما ذهب إلى قيصر الروم، ووعدهم أن قيصر الروم (زعيم الروم) سيأتي إليكم، إن قلوبهم واهية وآذانهم وفكرهم سقيم من هذا المنافق؛ لأنه لا يرى إلا رؤيا العين والقلوب "عَمية" لا ترى، ووعدهم إذا أتى قيصر الروم فإنه سيخرج رسول الله ﷺ من المدينة صلى الله عليه

وعلى آله وعلى صحبه الكرام، هل ترى أن هذا سيحدث؟ لم يحدث، ولماذا لم يحدث؟ كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧].

أي: والمنافقون الذين بنوا مسجدًا؛ مضارةً للمؤمنين، وكفرًا بالله وتفريقًا بين المؤمنين؛ ليصلي فيه بعضهم ويترك مسجد (قباء) الذي يصلي فيه المسلمون، فيختلف المسلمون ويتفرقوا بسبب ذلك، وانتظارًا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الراهب الفاسق؛ ليكون مكانًا للكيد للمسلمين، وليحلفنَّ هؤلاء المنافقون أنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخير، والرفق بالمسلمين، والتوسعة على الضعفاء العاجزين عن السير إلى مسجد (قباء)، والله يشهد أنهم لكاذبون فيما يحلفون عليه وقد هُدِم المسجد وأُحرِق.

فاللهم اجعل قلوبنا نقيةً، وأعيننا باكية، واجعل قلوبنا خاشعة.

هناك أعمال يؤديها الإنسان وهي في منطق الشريعة، ومنطق العقل توصف: أنها مخالفة، وتوصف أنها معصية، ورغم هذا تقنع نفسك أنك على حق، وأن غيرك على باطل كالذي يعمل موظفًا، ولا يذهب إلى عمله إلا يومين أو ثلاثة، أو لا يذهب إلا مرة في الشهر، ويأتي إليه الراتب ويقول: الحمد لله راتبي حلال، لماذا؟ لأنه يقول: إذا ذهبت إلى العمل لا أجد عملًا لكي أقوم به، وتستحل الراتب، وتستحل هذا المال العام، وتأخذ هذا المال دون أن تفعل به شيئًا هذه مشكلة، مشكلة من؟ الأخسرون أعمالًا كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف:١٠٣]، أي: قل أيها الرسول للناس محذرًا: هل نُخبركم بأخسر الناس أعمالًا؟ وأيضًا كالذي يبالغ في أعمال السباكة، والنجارة مثلاً... أو غيرها بمبالغ طائلة لا تساوي ما فعل

فإنه أغضب قيُّوم السماوات والأرض، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الزمر:١٣].

قل أيها الرسول للناس: إني أخاف إن عصيت ربي فيما أمرني به من عبادته والإخلاص في طاعته عذاب يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يعظم هوله.

هذه وجهة، ووجهة ثانية كالذي له منصب في الدولة، أو غير الدولة، ويأتي إليه أناس يعملون لديه، ولا يأخذون منه أجرًا يعملون به عنده؛ لأنه كذا في مكان معين، ولأن منصبه كذا، وهم يستحيون أن يطلبوا منه، وهو لا يريد أن يعطيهم المال، فأخذ المال وقال لك: أنا سلطتي، وحكمي، ومكاني، و قراري يعطي لي هذا الحق أن أجبر الناس للعمل عندي، وأقنع نفسه أنه على حق، لا ليس عليه حق، فلا الأول على حق، ولا الثاني على حق، الأول أخذ ما ليس له، والثاني منع ما كان ينبغي أن يعطي، هذا العمل في الشريعة الإسلامية يسمى أصحابه الأخسرين أعمالاً .

في اللغة العربية يقول: خاسر وأخسر، أيهما أشد، الخاسر أم الأخسر؟ الأشد (الأخسر)؛ لأنها مبالغة في الخسارة، أي أن أحدهم خسر خمسة جنيهات، أو خمسين جنيهًا، والثاني خسر خمسين ألف جنيه هكذا، أيهما أشد خسارة، الثاني هو الأخسر، إن الملك ﷻ يسهل الأمر عليك، والله تعالى يقول: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا** ﴾ [الكهف:١٠٣] .

أي: قل أيها الرسول للناس محذرًا لهم: هل نُخبركم بأخسر الناس أعمالًا؟ إن الله تعالى هو الذي سينبئنا بالخبر اليقين، وليس بالخاسرين، ولكن بالأخسرين أعمالًا، كالذي لا يصلي الفجر خاسر، والذي لا يصلي الفجر، ولا العشاء أخسر وأشد خسارة، الذي ينام على غير وضوء، أي على غير طهارة خاسر، والذي ينام على جنابة أخسر، هكذا مراتب الناس؛ لأن الطاعة لها مراتب، والأولى لك أن تكون متوضئًا على مدى أربع وعشرين ساعة، فالنبي الكريم ﷺ وعلى آله وصحبه الكرام قال: «**لا يحافظ على**

الوضوء إلا مؤمن»[1] ما الذي أدخلنا في الوضوء، والوضوء هو عين النقاء؛ لأنك عندما تغسل جارحة، عندما تغسل يديك، وعندما تغمرها بالماء، وتغمر ذراعيك بالماء؛ فإنه يتخلص وتنزل منه جميع الذنوب، فماذا أسمي الذراع الأيمن الآن؟ ماذا بعد أن توضأ وذهبت إليه الوضاءة وتفاعلت معه؟ أسميه ماذا؟ أسميه نقيًّا، وعندما أغسل وجهي؛ تتناثر الذنوب من وجهي، أو من لحيتي فصار وجهي نقيًّا، هذا معنى قول الحبيب اللهم صلى وسلم وبارك عليه. **«ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»**.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ من هم يا رب؟ هم كما جاء في كتابه الكريم في الآية التي لحقتها في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤].

أي: هم الذين ضلَّ عملهم في الحياة الدنيا، وهم مشركو قومك، وغيرهم ممن ضلوا سواء السبيل، فلم يكونوا على هدى ولا صواب، وهم يظنون أنهم محسنون في أعمالهم .

فالواحد منهم يعتقد أنه من الصالحين ومن المتقين، ورغم هذا نجده يدخن ولا يرتعد مع الآذان، ولا يستجيب لآذان الفجر، ولا لشيءٍ أبدًا، ورغم هذا عندما يتحدث معه أحد عن الصلاة يقول: أنا في مرتبة أعلى من الذي يصلي مليون مرة، وإذا ما حدثه أحد عن الزكاة فإنه يتكلم معه بكلام عجيب وغريب، بل ويقنع نفسه أنه على حق، وهذه مصيبة لماذا؟ كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا .....﴾ [فاطر:٨].

---

(١) مسند ابن ماجه، كتاب: الطهارة وسننها، باب: المحافظة على الوضوء، رقم الحديث: ٢٧٣.

فالسواك مثلًا طيب ومطيبة ومطهرة، فقلت لي: "لا" هذا معجون الأسنان أفضل منه، وهكذا يقول المنافقون، لا نعتقد لا في السواك ولا في ماء زمزم، أي: أنت تـكذب كلام سيدنا النبي ﷺ، كالذي يقول إن التحاليل والتجارب تثبت أن ماء زمزم فيها ملوحة عالية، ومياه دلعة، وكذا وكذا فيها ملوحة ودلعة وشدة على المنافقين؛ لأنه يشربها وهو متألم منها، ومتضرر منها، أما المسلم إن أتيت له بعشرين لتر يشربه، ويقول: زدني، هذه من سمات المؤمن، إنه يتضلع من ماء زمزم، والماء يسري في عروقه، أي: يزداد في ضلوعه وفي أجزائه كلها من زمزم، هذه من علامات الإيمان أن تحب زمزم فأنت مؤمن، أن تكره زمزم فأنت منافق، أن تحب السواك فأنت مؤمن، أما أن تكره السواك فأنت منافق، إن الله تعالى وَضَّحَ لك هذا كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [فاطر:٨]

أفمن حسَّن له الشيطان أعماله السيئة من معاصي الله، والكفر، وعبادة ما دونه من الآلهة والأوثان فرآه حسنًا جميلًا، كمَن هداه الله تعالى، فرأى الحسن حسنًا والسيئ سيئًا ؟ فإن الله يضل من يشاء من عباده، ويهدي من يشاء، فلا تُهْلك نفسك حزنًا على كفر هؤلاء الضالين، إن الله عليم بقبائحهم، وسيجازيهم عليها أسوأ الجزاء.

أي أن العمل سيّء وحالته سيئة، فعلى سبيل المثال، الذي يأكل ميراث إخوته يقول لك: أنا أولى منهم في الأصل؛ لأنني كنت أشارك والدى في عمله، وهم كانوا صغارًا وهم تعلموا في الجامعة، وأنا لم أتعلم في الجامعة، ويبدأ يقنع نفسه بكلام غريب، وعجيب بأنه هو الأولى بالميراث ومن أخواته، إلى متى تسرق؟ وأنت نفسك مسروق بعد هذا كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا..... ﴾ [فاطر:٨].

وكالذي يمتلك محطة بنزين، ويخلط البنزين بالماء ويقول: الناس تمتلك أموالًا كثيرة، فهو معترض على تقسيم الملك، كأنك تكسر ظهور الناس، كأنك تعامل الناس بقسوة وبشدة، أنت تعامل الناس ولا تعامل رب الناس، هذه المعاني كلها ضد النقاء.

النقاء هو أن كل الأعمال التي تعملها وأنت موقن أن الملك يطلع عليك، لو أنك تغش في اللبن الملك مطلع عليك، لو تغش في كذا الملك مطلع عليك، أو كما ورد لنا وسمعنا عن رسول الله ﷺ قال: «إن رجلاً حمل معه خمرًا في سفينة يبيعه ومعه قرد، قال: فكان الرجل إذا باع الخمر شابه بالماء ثم باعه، قال: فأخذ القرد الكيس؛ فصعد له فوق الدقل؛ فجعل يطرح دينارًا في البحر ودينارًا في السفينة حتى قسمه»(١) أي: أن رجلًا كان يبيع الخمر، ثم ركب مركبًا صغيرًا في البحر يتحرك من بلد إلى بلد، وهو يكرر هذه الطريقة، وكان يعاني من مشكلة أنه كلما استشعر أن الخمر ينقص يزيد له ماء، أي الذي يشتري منه كيلو خمرا يكون نصفه خمرًا ونصفه ماء أي غش، وإن الغش ليس نقاء أبدًا ولا صفاء، وأنه يأخذ أموال الناس بالباطل، ويغش في كل شيء، كالذي يتاجر في الشاي يضع عليه نشارة خشب إذا كان عنده متجر، أو مطحن، وكذا.

كان معه قرد في المركبة، فالقرد ينظر إليه الذي لا يكتب ولا يقرأ، ولا كذا، ولا كذا أنت تغش القرد، هذا شيء عجيب، فجعله يجمع ويجمع ويبيع ويبيع، ويضع الفلس على الفلس وهكذا وجعلها في صُرَّةٍ وقال لك: إنها خزينة اليوم ولف الصُرَّةَ ويكاد يضعها في جيبه فقفز عليه القرد، وأخذ الصَّرة، كان من الممكن أن ينزل القرد في الأول، ويسكب له الخمر؛ لكي

(١) مسند الإمام أحمد، باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي هريرة رضي الله عنه، رقم الحديث: ٧٧١٠.

يكون له حسرة وندامة على ما فرط في جنب الله تعالى ﷻ، ولكن القرد انتظر عليه، وانتظر عليه حتى باع كل الخمر، فأخذ الصّرة وصعد إلى السارية – وهو العمود الذي يكون في نصف المركب أو الباخرة – فصعد القرد إلى أعلى السارية ومعه الصّرة وفتحها، وألقى ما بها – على حسب العملة التي كانت في هذه الصّرة – يرمي جزءًا هنا وجزءًا هناك، أي يقول له: مالك نصفه حلال، ونصفه حرام، وأنا أنقيه لك.

هذا هو النقاء الذي نتحدث عنه الليلة، فرمى نصفه في البحر ورمى نصفه إلى هذا الرجل؛ أي أعطاه قيمة الخمر الحقيقية التي خرج بها من بيته، ولو أفلحت أيها القرد وألقيت الصّرة كلها في البحر لكنت على صواب؛ لماذا ؟ ولماذا أنت حزين هكذا؟ لأنه عندما أخذ الحرام ووضعه على الحلال أضاع بركة الحلال.

اللهم رب السموات والأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اللهم اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر بودك وإحسانك، يا أكرم الأكرمين.

اللهم إنا نسألك رحمة من عندك تهدى بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا وتلم بها شعثنا، وترد بها الفتن عنا، وتصلح بها ديننا.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد الرسول الهادي، الشفيع يوم الوعيد

والتنادي، وصلِّ اللهم وسلم عليه وعلى آلـه بعـدد مـن في الحـضر والبوادي من يوم خلقت الدنيا إلى يوم القيامة في كل يوم ألف مرة.

****